الرِّحلَة

عبد الكريم الناعم

● كانتِ الرحلةُ ابْعَدْ
والأمـانيُّ على شَـفْـرَةِ مـا يَهْـجِسُـهُ القلبُ
تَرَاءَى وَتَجدَّدْ

خلفَ هذا التَّلِّ
بَعْدَ الشِّعْبِ
قُربَ الشجرِ الطافحِ في الوادي،
وراءَ الجبلِ العالي،
ويمشي

في خُطاهُ أملٌ يُسقى بما في
عطشِ الحرمانِ من ماءٍ قَصِيٍّ
وعلى نَبْضِ خُطَاه: ظِلٌّ نَعْشِ.

● طالتِ الرحلةُ، والبيدُ: امتدادُ
وهو في اللاّهبِ من قيظِ أمانيه
على بُرْعم حلم
كلّما استَّاقطَ ظِلٌّ
فَتَحَ الأُفقَ فؤادُ.

● طالتِ الرحلةُ، والقفرُ قِفارُ
والظهيراتُ: شُواظٌ،
وهْو ينأى،
والمسافاتُ تَرَامَى
وهو لا يملكُ إلاّ أَنْ يمدَّ الروحَ
بالرغبةِ والحَدْوِ،/
إذا أَسْفَرتِ البيدُ عن اللّيلِ
وألقَى تَعَبَ الشوقِ قليلاً
تَرَكَ الماءَ على ضفةِ مجراهُ وصَلَّى
فإذا آنَسَهُ الليلُ بما في كُوَّةِ الكَوْنِ
من النّورِ: تهجَّى بعضَ ما نَاشِئَةُ اللّيلِ
تُواريهِ على سانحةِ الكَشْفِ المغطَّى
فإذا ما امتلأتْ أحناؤه الصغرى بفيضِ
اللحظةِ الكبرى...
وأَضَوْتْهُ الأماسي
حَسِبَ الموتَ سلاما
والمسافاتُ تَرَامى.

● بَعْدَ دهرين وقد أَجْهَدتِ الأنواءُ
ما يَدْخَرُهُ من دَنَفِ الصبرِ رأى
آنَ انتصابِ الحرّ بستاناً إلهيّاً
فَصَفَّقْ

بَهَرَتْهُ فتنةُ البستانِ،

في ذاكرةِ الروحِ وصايا،
هو لَمْ ينسَ الذيَ جَهَّزَهُ،
ما كانَ في عينيهِ،
في حَرْفَيْهِ
مِن وحيٍ صريحٍ،
قالَ:
«إنْ صادَفَكَ البستانُ في عِزِّ
أَوَانِ الحَرِّ.. فَحَاذِرْ»
.....
كانتِ الرغبةُ أعلى،
وَلَجَ الظِلَّ، ونالَ الثمرَ الأشهى،
ونامْ

لَمْ يَعُدْ يَفْرُقُ بينَ اليقظةِ الوَسْنَى
وتهويمِ المَنَامْ.
.....
مثلما في الحُلْمِ
أو في يقظةٍ سكرى رآهُ،
بينَ ظِلَّينِ من (الضَّالِ) رآه،
ربَّما خامَرَهُ الشكُّ...،
رآهُ
كانَ في نشوةِ ما يُقْطَفُ من
ذاكَ العَيَاءْ
حينَ جاءْ

صاحبُ البستانِ جَاءْ

ما الذي يُبْصِرُهُ الآنَ
وما ثَمَّ غِطَاءْ

إنه ذاتُ الذي جَهَّزَهُ للرحلةِ الكبرى
وأوصاهُ
وشَذَّى عِطرَهُ ذاكَ المسَاءْ

ما الذي يَفْعَلُهُ الآنَ
وهَلْ ثَمَّ كلامْ
والمسافاتُ: انتهاءْ؟!!
مثلمَا فاجَأْتَ طفلاً يَسْرِقُ الحلوى،
وكانَ الهلَعُ المخفيُّ أعلى،

«أيُّ عُذْرٍ
يَتُّها الأرضُ خذيه»،

سَاخَ مِن فرطِ حَيَاءْ
أهُوَ الخوفُ أمِ الـ...؟!!

مُطْرِقاً كانَ على بابِ الرجاءْ

هو لا يذكُرُ: هل كانَ على وجهِ الذي فاجأَهُ
ظِلُّ ابتسامٍ، أم هو الوَهْمُ أراهُ بعضَ
ما يُرجى.. فأَغْضَى؟

هو لا يدري... ولكنْ..
ربّما،..
أو..،
ليسَ يدري.

أتراهُ لمحَ اللطفَ على ذاكَ المحيَّا
في زمانٍ شَفَّ حتى كانَ أنقى
من رُقاقاتِ الهَوَاءْ؟

أتراهُ لَمَحَ اللطفَ كَمَا كانَ يَشَاءْ
أمْ هي الروحُ إذا داهَمَهَا خوفٌ جليلْ
تمزُجُ اليأسَ بأوراقِ الرجاء؟!.

حمص (سوريا)